اسرائيل نفس المستوى من الخسائر المالية والبشرية، أو لأنهم لم ينفذوا كذا عملية كل شهر. اذ تختلف معطيات المساحة والمخابئ والمأوى في الدول المجاورة ونسبة عدد المستوطنين الى عدد المستعمرين. بل يظهر أن العمل الفلسطيني نجح أولاً في اكتساب الاعتراف الدولي بالوجود الوطني الفلسطيني وبشرعيته ووحدانية تمثيل م.ت.ف. له، في اعادة الهوية الوطنية الفلسطينية. وثانياً في اجبار اسرائيل على زيادة احتياطاتها الامنية إلى حد معاملة التهديد الفلسطيني بمستوى الخطر النظامي العربي[١٢]. كما نجح الفلسطينيون نجاحاً فضفاضاً في تطبيق درس آخر من دروس التجارب الاخرى، ألا وهو اهمية القيام بعمل سياسي جماهيري واسع بموازاة العمل العسكري، غير ان م.ت.ف. لم تنجح، حتى الآن، في انشاء تنظيمات سياسية جماهيرية واسعة وفعالة في الارض المحتلة.

بل يتمثل الاستنتاج الجوهري، عند مراجعة التجربة الفلسطينية أم الاجنبية على حد سواء، في ان معدل العمل العسكري وكفاءته لم يشكلا المدخل الحاسم لفرض التراجع على العدو - لا في فيتنام ولا في الجزائر ولا في قبرص ولا في فلسطين - بل ان التقاء الضغط العسكري والمادي المتواصل مع ظرف سياسي - معنوي معين لدى الخصم، ولدى الذات، ولدى المحيط الاقليمي او الدولي، هو الذي وضع المحتل في موقف تفضيل الانسحاب على البقاء. إذ يستعد كل محتل على تحمل نسبة معينة من الخسائر، ولا يغير موقفه بسبب تراكم الخسائر فحسب، بل بسبب تعاظم الخسارة السياسية - الاستراتيجية في وقت تستمر فيه خسائره المادية أو تتزايد. وتحدد اهمية الارض المحتلة بالنسبة إلى القوة الاستعمارية وحجم إمكانياتها المادية الى أي مدى يستعد المستعمر للبقاء ومتى يفضل الانكفاء. وهذا ما يفسر انسحاب اسرائيل عن جنوب لبنان ايضاً، اذ لم «يُحرِّز» الاحتفاظ بجنوب لبنان تحمل المتاعب السياسية الداخلية والدولية، حتى بعد نجاح الاجراءات الامنية الميدانية في تقليص معدل الخسائر البشرية الاسرائيلية الى حد مقبول[١١].

الخيارات الصعبة

يتمثل الدرس الحقيقي الذي قدمه غريفاس، ناطق الكلمات التي افتتحنا بها هذه المقالة، في تحديد الهدف النهائي المرجو، وثم دراسة طبيعة العدو وامكانياته، قبل الوصول الى رسم الاستراتيجية المؤهلة لاستثمار ما توفر من امكانيات ذاتية وتجاوز أفضليات العدو[١٥]. وقد ادرك غريفاس أنه لن يستطيع، ابداً، ان يهزم البريطانيين عسكرياً، لكنه فهم دقة موقفهم السياسي والدولي فعمل على إحراجه وتحويله سلاحاً في يده بواسطة عمل عسكري محدود وانتقائي («جراحي»).

لو نظرنا الى حركة المقاومة الفلسطينية المعاصرة، نجد انها أعلنت هدفاً نهائياً هو ازالة الكيان الصهيوني وبناء الوطن الفلسطيني، وما لبث ان تطور الهدف ليشمل بناء دولة ديمقراطية تضم اليهود المتبقين في فلسطين عند التحرير أو حتى جميع سكان اسرائيل اليهود. وقد طرأ تعديل هام منذ العام ١٩٧٤ وما بعد، اذ قبلت التنظيمات الفلسطينية، تدريجياً، بتحقيق الهدف النهائي على مراحل، وبما يشمل بعضها الأساليب السلمية، تبدأ باقامة سلطة وطنية (عبر التفاوض، عملياً). وتُطرح هنا المفارقة الهامة: اذا كان المجتمع الاسرائيلي كله غريباً يجب اقتلاعه ولفظه، أو اذا كان بقاء اليهود كمواطنين مقبولاً لكن على